

مقولات الفضاء الأدبي من التنظير إلى التهجير مدخل إلى التداول العربي للمصطلح

أ. محمد توامي

كلية الآداب و اللغات و العلوم الإنسانية و الاجتماعية

E-mail : Touami@live.com جامعة المدية

Summary :

The sum of studies about « literary space » forms an ambition to establish a modern theory in western literature. It also represents an important poeticity to generate the literary text, starting by narrativity. At the level of the Arabic reception, these studies have seen a confusion which created a clear contrast in its understanding and resettlement with regard to Arabic culture. It is noted that the harmful translation into Arabic has made significant contributions in this dilemma as well as the hasty transfer and resettlement of the term (literary space). If the terme is considered as a facade of certain knowledge, we became aware about the danger of spreading it whit this wrong connotation.

This article is an attempt to rectify the terminological situation by calling attention to its own theoretical foundation and the necessity of transferring it to our culture on this theoretical and philosophical basis, so that the concept of « literary space » becomes compatible with the Arabic literary environment in its scientific and poetic signification.

ملخص

تشكل مجموع مقولات الفضاء، في مجال الأدب، طموحا لتأسيس نظرية حديثة في الآداب الغربية، كما تمثل شعرية-
poéticité هامة في تخليق النص الأدبي، بدءا بالسرديات Narrativité.

وقد عرفت هذه المقولات الفضائية تشويشا بائنا في مستوى التلقي العربي لها، مما أوجد تباينا وضحا في فهمها وتوطيئها،
بعد ذلك، في الثقافة النقدية العربية، بين المشتغلين بالحقول الثقافي العربي.

ويلاحظ أن إساءة الترجمة إلى العربية، ساهمت بقسط وافر في مثل هذا الاضطراب الحاصل، بالإضافة إلى الحاصل،
بالإضافة إلى عدم التأني في تهجير المصطلح وتوطيئه.

فإذا كان المصطلح واجهة لحمولة معرفية معينة، أدركنا مدى خطورة تروجيته على غير حقيقته وهذه المقالة محاولة
لاستدراك هذه الحالة المصطلحية بالتنبيه إلى مرجعيتها التنظيرية وضرورة نقلها إلى ثقافتنا على هذا الأساس النظري والفلسفي،
بما يحقق للمصطلح المذكور بيئته الأدبية العربية اللائقة بحمولته الدلالية العلمية والشعرية.

لم تعد الصورة « IMAGE » مهيمنا على ظاهرة النص الأدبي وذات كفاءة بمفردها على تسمية الشعرية « poétique » في الخطاب الأدبي. فهي مكون من مكونات هذا الخطاب، «أسلوب من أساليب شعرية عديدة تستخدم لزيادة التأثير⁽¹⁾ ». كما يقول شكوفيسكي. والفضاء الأدبي واحد من تلك الأساليب أو المكونات الهامة في تسمية النص الأدبي.

بيد أن هذه الشعرية الجديدة، عرفت منحى جدليا واضحا، سواء بعملية توطين المصطلح بترجمته إلى العربية أم بإحلاله مقولة نقدية في خطاب النقد العربي المعاصر، مما يربك مؤداه الأدبي العربي فالعمل على تأجيل المعرفة العلمية به استنادا إلى واقع نقل المصطلح أو ترجمته إلى العربية.

وهذه الورقة محاولة لقراءة هذه الشعرية الجديدة في مظانها النقدية العربية، بدءا من شجون ترجمة المصطلح وأدبياته العربية المعاصرة.

هناك لحظتان حاسمتان - فيما يبدو - في واقع الثقافة النقدية المعاصرة في الغرب، من حيث تم إحلال الفضاء « Espace » مقولة نقدية ذات أهمية بالغة في تحقيق وجود النص الأدبي إلى جانب مكونات أخرى تقليدية في أولها المكون الزمني. فاللحظة الأولى كانت عند تجاوز التقسيم التقليدي بين الفنون الزمنية « Diachronique » والفنون التزامنية « Synchronique »، أو بتعبير آخر تخطي تمييز غوتهولد ليسينغ « Gotthold Lessing ». بين «المقولات المبنية على التعايش في الفضاء، وتلك المؤسسة على التعاقب في الزمن⁽²⁾ ». أي أن الفن ينمو عموديا كما ينمو أفقيا بذات الوقت، وأن ما يحكم صيرورة الفنون جميعا هو هذا التداخل بين محوري الفضاء والزمن الذي يشيد هذه الصيرورة.

أما للحظة الثانية فهي ظهور الرواية كشكل أدبي حداثي يستلهم حركة المدينة الحديثة، أي طزاجة الفضاء الجديد الذي فرضته المدينة الصناعية في العصر الحديث، ولذلك يؤكد جيمي هاوثرن « J.Hawthorne » قائلا: «إن ربط الرواية بالمدينة وليس بالحياة الريفية أحد العوامل المهمة في تطورها. هناك بالطبع روايات تدور أحداثها في الريف، لكن ومنذ أيامها الأولى، يبدو أنه كان للرواية علاقة متميزة بحياة المدينة»⁽³⁾

هكذا فالنسب الحقيقي للرواية هو الفضاء المدني بخصائصه الحياتية الجماعية مقابل الحياة الفردية خارجها. بتعبير آخر إن الحياة في هذا الفضاء الجديد هي حياة ذات حركة عرضانية إذا جاز القول،

فهي حياة متحركة ضمن مجموع. لذلك يوضح جيمي هاوثرن هذا المعنى فيقول: « يمكن أن نرى أن المدينة والشكل الروائي فيهما الكثير من العوامل المشتركة. فكلاهما يحتاج عددا كبيرا من الناس يعيشون حياة فيها الكثير من الاعتماد على الغير، حيث يؤثر هؤلاء ويتأثرون ببعضهم البعض⁽⁴⁾ ». وإن هذه الحياة تنمو تعاقبيا بذات الوقت الذي تنمو فيه تزامنيا « Synchronique ». عندما تتزامن حركة الاقتصاد والمجتمع والثقافة في إطار هذا الوجود الحضري الحديث.

يمكن أن نقول، بعدئذ إن العصر الحديث ابتداء من القرن التاسع عشر، في أوروبا تحديدا، أوجد ما يمكن اعتباره تخطيا لمفهوم الزمان التقليدي ومفهوم الخطاب اللغوي التقليدي أيضا، من حيث ردم الهوة بين مبدأ التعاقب والتزامن - كما تمت الإشارة إلى ذلك، ومن جهة ظهور خطاب الفضاء، أي حلول «كلام المدينة» بالتدرج محل «الكلام على المدينة⁽⁵⁾». وهو الكلام الذي يصطلح عليه فرنسواز شواي « F.Choay » بـ ما « وراء اللغة⁽⁶⁾ »، أي سيمائية المدينة.

إن العالم الحديث، بما أوجده من علاقات جديدة بين الناس في فضاءهم الحضري الجديد، أي في المدينة الصناعية المعاصرة التي صارت حركية الحياة فيها إلى الشمول، أي ما يشبه الحركة الممتدة عرضيا كما هي ممتدة طوليا بذات الآن - أقول إن هذا العالم - هو الذي أعاد اكتشاف العلاقة بين الزمان والمكان على أساس المزامنة

« Synchronie » إنه فضاء بماهية جديدة أي بمعيار مديني لم يكن من قبل « إنه مدى لا تتساوى فيه، الاتجاهات مطلقا، مدى ملئ بأشياء تغير وجهة سيرنا حيث الحركة في خط مستقيم هي، على العموم، مستحيلة من نقطة إلى أخرى⁽⁷⁾ ».

فالمدى في هذا الشاهد النقدي لميشال بوتور - « Michel Butor » الذي يعني الفضاء - « L'espace » يحيل إلى فضاء المدينة المعاصرة في الغرب. بتعبير آخر : إن مصطلح الفضاء كمقولة نقدية وكشعرية وكظاهرة سيمائية، وأخيرا كموضوع « Thème ». هو سليل هذه التجربة الحضرية المعاصرة في الغرب عامة. وعلى اعتبار « أن نشوء الرواية مرتبط بالصراع والتوتر الاجتماعي⁽⁸⁾ » المعاصر، فإن مثل هذا التوتر الحضاري أوجد، بالموازاة، ما يمكن اعتباره توترا فنيا أو شكليا في مستوى الكتابة الروائية. وبشكل لافت من حيث استدعاؤه للبحث - خاصة في واحد من أهم المكونات الروائية وهو الفضاء بأشكاله المتعددة.

على أن مجموعة المقولات الفضائية التي تبلورت في مستوى النقد الأدبي في الغرب، لم تجد طريقها إلى التداول النقدي إلا مع الجيل الجديد من الباحثين والنقاد، ابتداء ب غاستون باشلار « G. Bachelard »، وموريس بلانشو - M.Blanchot ووصولاً إلى جيرار جنيت، G.Jenette ، هنري ميتران H.Metterand ، شارل كريفل Ch.Grivel ، ميشيل ريمون M.Raimon ... وغيرهم الذين أعادوا اكتشاف الفضاء نصيا بفحص أشكاله وتمظهراته الممكنة حتى الآن. غير أن هذا لا يدل على نظرية صارت جاهزة أو متبلورة نهائيا يمكن تداولها على هذا الأساس، بل هناك اجتهادات واضحة في هذا المساق . ويقر

هنري ميتران H.Metterand بكل هذا عندما يقول: « لا وجود لنظرية بارزة في التقضي الروائي، بل هو مسار للبحث لا يزال غير مستقر بعد⁽⁹⁾ » . ومثل هذا المسار أفرز إلى الآن - مجموعة مقولات في تعيين الفضاء في النص مثل (زاوية النظر)⁽¹⁰⁾ أو التبثير في السرد الذي يقابل مفهوم الرؤية (Vision) في الشعر .

هذا الشكل الفضائي الذي يقول بشأنه « يوري آيزنز فايك - U.Eizenzweig » : « إن الفضاء المشخص داخل نص أدبي، هو فضاء كاشف لأدلوجة معينة »⁽¹¹⁾ . ويعني ذلك أن تناول الفضاء لا يتم وفق أي حياد، من حيث هو مادة تتخلى عن غفلتها حيث تنال هويتها النصية وتصير حاملة لرؤية معينة.

أما من حيث الأهمية، فإن تداول الفضاء في النص هو الذي يحدد أولوية أي شكل فضائي دون الآخر، فيبدو الفضاء الذي يستدعيه التصوير الأدبي (المجاز التخيلي) أو الفضاء الأدبي الذي يسميه جيرار جنيت - « G.Genette » : « الفضاء الدلالي الذي يأخذ عمقه بين المدلول الظاهر والمدلول الحقيقي⁽¹²⁾ » ، - أقول - يبدو أنه أكثر التجليات الفضائية حضورا في النص الأدبي نثرا كان أم شعرا، باعتباره أي النص ذا لغة خاصة تتميز بالانحراف، بتعريف جان كوهين - G.Cohen . وبلاستعمال الجمالي للغة، « أي ذلك النمط الخاص من اللغة الذي يتواجد في نصوص شعرية ونثرية على حد سواء⁽¹³⁾ » . كما ترى « جوليا كريستيفا - J.Cristiva » .

تحددت الصفحة الطباعة فضاء آخر للبحث في أشكال الفضاء الأدبي، وقد تناولها نقاد عديدون بمصطلح: الفضاء النصي. وهو ذاك الاحتفاء بالهيئة التي يحل بها على الصفحة، وقد عرفت التجربة الكتابية الحديثة كمظهر طوبوغرافي Toppografique غنى واسعا، خاصة مع ستيفان مالارمي - S.Mallarme وأبولينير - G.Appolinaire وسواهما، في تجربة تعتمد القراءة البصرية التأويلية بناء على لعبة التشكيل وإمكاناته، اللانهائية. وهذه الفضائية البصرية

عملت من جهة أخرى على كسر (منطق) الخطية أو التعاقبية، أي الزمنية بإدخال التزامن والمواضعة (Convention) على وجود النص.

قاد مفهوم المواضعة من جهته إلى الاشتغال بالشكل الآخر للفضاء الذي هو فضاء القراءة لا من حيث هو فضاء للتأويل بل من حيث: «La Littérature tout entière» أي الأدب في كليته⁽¹⁴⁾. كما يقول جيرار جنييت: «وحيث كل كتاب هو كل الكتب⁽¹⁵⁾». إنه فضاء القراءة التي تحين الأدب وتموضعه مرة واحدة.

تلك أهم أشكال الفضاء الأدبي، متجاوزين شكل اللغة أو فضائية اللغة التي نعتبرها من طبيعة اللغة نفسها فهي فضائية تلقائية إذا جاز القول. كما ضربنا صفحا عن مصطلح (الفضاء الجغرافي) أي الفضاء المرجعي، الواقعي، فهو في تقديرنا- ضرب من الوهم، إذ كل فضاء واقعي في الأدب يداخله الخيال ويهذهبه.

إذا تجاوزنا عن واقع اكتظاظ الأدب العربي، بداية بخطاب الشعر الجاهلي، بالمكون الفضائي أو البنية الفضائية باعتبار الأدب في شموله إلى جانب مكوناته الأخرى «جنسا من التصوير⁽¹⁶⁾» كما يقول لنا التعريف النقدي العربي القديم، فإن الدرس النقدي العربي لم يعرف هذه الشعرية- شعرية الفضاء إلا حديثا إذا تخطينا أيضا بعض مقولات النقد العربي قديما في إشارات الالافنة إلى تأثير المحيط في رسم القول الشعري، كما في «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي. أو تعديل اللغة الشعرية كما تشير إلى ذلك عبارة القاضي الجرجاني: «فلما ضرب الإسلام بجرانه، واتسعت ممالك العرب، كثرت الحواضر، ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التأدب والتطرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعا، وألطفها من القلب موقعا»⁽¹⁷⁾.

أما في بداية العصر الحديث فإن ما تناوله الشيخان حسين المرصفي، وأمين الخولي، في حديثهما عن الآداب الإقليمية هو بعض ما يمكن رصده في هذا الاتجاه. بالإضافة إلى قسطاكي حمصي في تنبيهه إلى تأثير المكان أو الإقليم عندما يقول: «فإن تأثير المكان أي الإقليم تنفعل منه العقول كما تنفعل منه الأجسام»⁽¹⁸⁾.

وإذا أبدى النقد العربي القديم إلى بداية العصر الحديث، تماسا طفيفا بمفهوم الفضاء في الأدب أو بشعرية الفضاء بالأحرى، فقد ظل بعيدا عن مفهومه وعن نظريته التي تسير نحو التبلور والاكتمال.

وتعتبر ترجمة الروائي العربي اللبناني غالب هلسا لكتاب غاستون باشلار -G.Bachelard : L'espace poétique إلى العربية. ب: «جماليات المكان» بداية الاشتغال بشعرية الفضاء في النقد العربي الحديث والمعاصر أو تشغيل إجراءاته النقدية عبر التصدي للنصوص الأدبية المختلفة. كما يمكن اعتبار ترجمة هذا المصطلح إلى العربية في معجم الدكتور جميل صليبا الفلسفي أمرا مساعدا على تسويق هذا المصطلح في ساحة النقد العربي.

ولقد صدرت الترجمات في وقت متقارب نسبيا وبتأثير هذين الترجمتين (خاصة ترجمة غالب هلسا) باعتبارها ترجمة لكتاب نقدي أدبي مهم، ظهرت أعمال نقدية عربية عديدة تتخذ من مفهوم المكان إجراء نقديا في قراءة النص أو بحث شعرية وتأويلها. وسوف نقصر على أسماء بعض الباحثين والنقاد العرب مغربا ومشرقاً، مراعاة المقام البحث غير السانح لا غير، وعليه انقسم النقاد، في استقبال مصطلح (الفضاء - L'espace)، إلى فئات ثلاث. سمينا الأولى منها: أتباع ترجمة غالب هلسا. وسمينا الثانية: فئة التلقيين، أمام الثالثة فهي المراجعون.

عنا البحث بالأتباع، هؤلاء النقاد العرب الذين تلقفوا مصطلح، «المكان» وتداولوه في أبحاثهم على هذا الأساس، ومنهم صلاح صالح وهو أحد النقاد العرب المشتغلين ببحث شعرية الفضاء في السرديات العربية. يقول في كتابه: «قضايا

المكان الروائي في الأدب المعاصر « » لقد كان اختيار البيئة المكانية العربية من أيسر السبل أمام الروائيين العرب الأوائل لانجاز واحد من الفروق الجوهرية بين الرواية العربية والرواية الغربية التي اعتمدها مثالا للاحتذاء في الشكل والتقنية « . وهكذا يقع الباحث، مباشرة، في هذا الخلط. الاصطلاحي بإضافة (المكان) إلى (البيئة) ومن ثم لا نزال عند مصطلحات من مثل: المحيط والبيئة... الخ. مما هو معتاد في النقد التقليدي (التاريخي خاصة).

كما يدل الباحث صلاح صالح على مرجعيته في تشغيل هذا المصطلح (المكان) فيقول: ربما كان كتاب باشلار «شعرية المكان» أو جماليات المكان حسب ترجمة غالب هلسا الصياغة الأبرز - فيما اعرف - للدور الذي يتقنه المكان في صنع الشعرية والجماليات العليا في فنون القول كافة⁽²⁰⁾ « ولا تعليق على كثير مما في هذا الشاهد النقدي.

أما الناقدة المصرية سيزا قاسم دراز فترجم مصطلح: (L'espace) عند «يوري لوتمان - Iouri Lotman» بـ «المكان» وذلك في ترجمتها لمقالته: «مشكلة المكن الفني»⁽²¹⁾ وكذلك الحال في التقديم المهيب لهذه الترجمة.

والغريب أنها، في ثانيا ترجمتها ترد عبارة: «Espace Chromatique» فترجمها على النحو التالي: المساحة اللونية، فخرج - هكذا - بمقابل جديد هو (المساحة) مترجمة به مصطلح: (L'espace) !

أما في مستوى محاولاتها التنظيرية للمكان فتقول: «أن البشر لجأوا للمكان في تشكيل تصوراتهم للعالم المادية وغير المادية على السواء: فالقرب والبعد، والارتفاع والانخفاض، علاقات مألوفة تربط الإنسان ارتباطا بدائيا بالمحيط الذي يعيش فيه»⁽²²⁾. ويبدو الاضطراب، واضحا، على مستوى التعالق الذي تجريه الناقدة بين المكان والمحيط، أي بين مصطلحين لمفهومين مختلفين، ثم هي، من جهة أخرى، تبدو أسيرة التقاطب المكاني: علو/ انخفاض، قرب/ بعد... الخ مثلما يرد عند يوري لوتمان فيما (المكان) أكثر من ذلك.

ويشغل ياسين النصير، الناقد العراقي مصطلح (L'espace) بمقابل المكان في العربية، في مثل كتابه: «جماليات المكان في شعر السياب» فيرى بخضوع التجربة الشعرية عند السياب إلى ثلاثة أبعاد: (الماضي، الحاضر، النفسي)، - الذاتي). وبتجاوز مثل هذا التقسيم أو التحفظ عليه، نقف على قول الناقد: «وأفضل من [ما] يجسد هذه الأبعاد في شاعرية السياب، هو المكان الذي يصبح فيها دالا ومدلولا، يولد الصورة الشعرية، ويمدها ببعد تاريخي كما يضمها انفعالات الشاعر وأحاسيسه الخاصة»⁽²³⁾.

والملاحظ أنه بالرغم من ملازمة الناقد لذلك التداخل بين (المكان) - كما يقول - وبين الصورة الشعرية، فإنه يصير على المقابل العربي (المكان) لمصطلح: (L'espace).

لا تخرج، الناقدة والباحثة الدكتورة، يمني العيد عن الانضواء تحت ترجمة الروائي غالب هلسا إذ تقول معلقة على شعر أبي نواس، مثلا: «المكان هنا فضاء زمني معيش ومتغير، وجمالية المكان بهذا المعنى هي جمالية ذات بعد مأساوي ناتج عن صراع يحكم المكان في زمنيته»⁽²⁴⁾ « ونرى بأن الباحثة لا تبعد عن الوعي بالفضاء، في الأدب، وبشعرية هذا الفضاء عندما تؤكد هذا التناغم بين عنصرَي الزمان والمكان، ولكنه سحر ترجمة هلسا، كما يلاحظ ذلك الدكتور حسن نجمي، الذي فعل فعله في الثقافة النقدية العربية، ونضيف إليه، نحن، ذلك الاستسلام الذي لا يكلف صاحبه عناء المراجعة والتثبت.

ومن تداعيات ترجمة هذا المصطلح (L'espace) النقدية ومازقها انتظام جماعة من الباحثين في منطقة التفريق ومنهم الباحث المغربي حسن بحراري الذي يعد ممن اهتموا بمكون الفضاء في السرد العربي حيث يعرض التنظيرات

المتعددة، لدى أساطين البحث في هذه الشعرية، ثم يعتمد بعد ذلك إلى معاملة الفضاء كمرادف للمكان: فهو يقول: «إن الفضاء في الرواية ليس، في العمق، سوى مجموعة من العلاقات الموجودة بين الأماكن والوسط والديكور الذي تجري فيه الأحداث والشخصيات التي يستلزمها الحدث»⁽²⁵⁾. ثم يقول في موضع آخر: وهو بصدد الحديث عن عمل أحد الروائيين العرب: «ولتأني تشكيلة للفضاء المكاني الذي ستجري فيه الأحداث سيعمل الروائي: [...] الخ.

والذي عنانا- هنا- هو هذا الجمع بين مصطلحين بهذه الإضافة النشار، في تقديرنا، ولعله يقصد (الحيز) لماله من إحياء بدلالة المحدودية.

يوافق الباحث التونسي الدكتور عبد الصمد زايد، حسن بحراوي في مثل هذا الجمع بين مصطلحي: (المكان)، (الفضاء) حينما يقول: «قد تتقاسم نفس المكان وظيفتان أو أكثر كالشارع مثلا، فهو فضاء اقتصادي وفضاء اجتماعي في نفس الوقت»⁽²⁶⁾. ويضيف إلى هذا أقوالا كثيرة تقيد ذات الخلط بين المصطلحين بالرغم من اهتمامه الكبير باستعراض جهود مختلف الباحثين الأجانب، في هذه الشعرية الجديدة، خاصة في اللغة الفرنسية، التي تقدم فهما متبلورا إلى حد كبير يكاد يشكل نظرية قائمة، غير أنه يعود إلى الجمع بين مصطلحي (المكان) و(الفضاء) دون تقديم مبرر موضوعي لمثل هذا الصنيع.

نتوقف الآن قليلا عند من دعاهم هذا البحث بـ«النقاد المراجعون» وهم جماعة الباحثين الذي وضعوا أنفسهم على مسافة أقرب - في اعتقادنا - من هذه الشعرية التي لا بد أن نعترف بمرجعيتها الغربية، الآن، دون الحجب على إثرائها العربية، لأسباب أهمها: العودة إلى المصادر الفرنسية والانكليزية بالقراءة والنقاش المستديم والمتابعة في هذه الشعرية.

-استقبال مقولات الفضاء دون اتكاء مسبق على مرجعيات التراث العربي واشتغالاته بمفهوم المكان، وبثقل دلالي يعود به إلى أدبيات الأطلال في تراثنا الشعري، وكذا غرض الوصف المعروف.

-توطين المصطلح في الدرس النقدي العربي الحديث، دونما ربط حرفي بين مصطلح (الفضاء) كمقابل للفظ (L'espace) في اللغة الأجنبية، باعتباره مجموعة مقولات أدبية، وبين المعنى المباشر، أي اللغوي - كما هو في قوامسنا العربية - وإن أبدى هذا المصطلح لا ممانعته في الكشف عن مرونته، بوساطة التأويل أو (التخريج) إذا ما اخذ بمعناه الحرفي أو الدلالي المباشر. وهذه الفئة من المراجعين انقسمت بدورها، إلى فريقين:

1) المنحازون إلى مصطلح (الفضاء) ترجمة لـ « L'espace ».

2) الآخذون بمصطلح (الحيز) ترجمة لذات المصطلح في اللغة الأجنبية، بحاجة بينها الدكتور عبد الملك مرتاض على تميع الفضاء عندما صار إلى السياسة وغيرها، مثل: (الفضاء الحيوي) النازي، (غزو الفضاء).... الخ، فيقول: «من أجل ذلك ارتأينا أن نصطنع مصطلح «الحيز» الدال على الفضاء الأدبي»⁽²⁷⁾. وقد أبدى الدكتور مرتاض جهودا معتبرة في مبحث الفضاء ومقولاته المتعددة، كما كشفت كتاباته عن وعي كامل بأدبيات هذه الشعرية، مضيفا، من باب الاجتهاد، إلى إشكال الفضاء المعروفة شكلا آخر يستوحيه من التراث العربي، عند عماد الدين الأصفهاني، حيث قال: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده: لو غير هذه لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن»⁽²⁸⁾.

وهذا ما يمكن فهمه عند مرتاض بـ«حيز الصراع» مع النفس في طلب الكمال. وأرى أن يدعى «حلم الإبداع» أو «عذاب الإبداع» وهذا عبر عنه، أحسن تعبير في العصر الحديث، جبران خليل جبران في رسالة له إلى مي

زيادة فقال: « لماذا كتبت تلك المقالات وتلك الحكايات؟ لماذا لم أصبر؟ لماذا لم أضن بالقطرات فأدخرها واجمعها ساقية؟ (29) » .

ومن الباحثين المنحازين إلى مصطلح (الحيز) الدكتور بسام قطوس الذي يتبع تخريجات الدكتور مرتاض بخصوص اعتماد مصطلح (الحيز)، إذ يقول بأنه اقتنع بحجج مرتاض في ترسيم هذا المصطلح مقابل لفظ الأجنبي (L'espace) .

ثم يضيف: « مازال النقد العربي المعاصر يشكو من توحيد المصطلحات النقدية المستحدثة والمأخوذة من الكتابات النقدية والألسنية والسيمائية في الغرب. ومن هذه المصطلحات التي تثير الاختلاف مصطلح (L'espace) حيث يترجم لدى بعض المشاركة بـ "الفضاء" ويترجمه الباحث العربي الجزائري عبد المالك مرتاض بـ «الحيز» وقد رأيت أن آخذ بالمقابل الذي وضعه مرتاض [.....] » (30)

وبمثل هذا الشاهد: «أن الحيز غير محدود بفضاء أي جو خارجي يحيط بنا فحسب، فهو عالم مفتوح (31) » . وبهذا الشاهد الذي يتكئ فيه على الدكتور عبد المالك مرتاض، يكون قد خرج بنا من الوضوح إلى الغموض من حيث لم يشأ، ناهيك عن بعض المغالطات الواضحة ومنها تداول مصطلح (الفضاء) مشرقا، فهو غير صحيح وما يكون قد حدث لا يشكل ظاهرة بل نشازا ونقلا، لأن الشرق العربي لم يتعامل نقديا إلا بمصطلح «المكان» كمقابل لمصطلح (Espace).

أما الأمر الثاني، فإن مركز المحاجة عند مرتاض هو الشساعة التي يوحي بها مصطلح (الفضاء)، فكيف يكون الحيز عالما مفتوحا لا يحده فضاء؟ فضلا عن الفهم الذي يصدر عنه الدكتور قطوس في اعتماده الفهم الفلسفي والفلكي أيضا لمؤدى (الفضاء) !.

سنكتفي، في التمثيل للفئة الأولى من المراجعين، بثلاثة أسماء هي: الدكتور حميد لحداني، والدكتور رشيد بن مالك، والدكتور حسن نجمي. وهي الفئة التي ترفض ترجمة غالب هلسا ومن بني عليها من النقاد والباحثين العرب. ويرون بأن «المكان» في العربية لا يقابل إلا مصطلح : « Le Lieu » وهذا موقف الدكتور مرتاض أيضا. كما يتداولون مصطلح (الفضاء) مقابل لمصطلح (L'espace) الذي يتحفظ عليه الدكتور مرتاض.

ويكشف حميد لحداني في كتابه: «بنية النص الروائي» عن وعي كبير بمفهومه وتجلياته، فيحددها في أربعة أشكال هي:

1-الفضاء النصي.

2-الفضاء الجغرافي - المرجعي (ويقابل مفهوم المكان).

3-الفضاء الدلالي.

4-الفضاء كمنظور.

ورغم ما يبدو من متابعة لـ جيرار جنيت - G.Genette ، فهو يكشف عن اجتهاده الشخصي عندما يخالف الباحث الفرنسي، مثلا في مقولة: (الفضاء الدلالي) إذ يعتبره خارج مبحث الفضاء (32) ، كما يعتمد لحداني على فك

الارتباط بين الفضاء Espace ، والمكان: Le Lieu بقوله: «أن الفضاء في الرواية أوسع وأشمل من المكان إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية»⁽³³⁾ . فالمكان - هكذا- رافد من روافد الفضاء وليس قرينا اصطلاحيا.

أما الدكتور رشيد بن مالك فإنه يشتغل بمفهوم الفضاء كقابل لمصطلح: (L'espace) في اعتماده المنهج السيميائي فيقول: «ينطلق التحليل السيميائي من فرضية مفادها أن الفضاء نظام دال [.....] وننظر إليه على أنه مركب كالكلام...»⁽³⁴⁾ ويضيف قوله: «أن استهلاك الفضاء مربوط بطبيعة القيم المستثمرة فيه»⁽³⁵⁾ .

ويتضح أن بن مالك - هنا- لا يشير سوى إلى مقولة الفضاء المرجعي أو الجغرافي باصطلاح لحمداني، ولكنه يصطلح عليه بـ (الفضاء) وليس بـ (المكان) كما هو ماثل.

لا يختلف الباحث المغربي الدكتور حسن نجمي عن بقية المراجعين ولكنه يزيد عليهم بأفضلية اللاحق على السابق، من حيث أتاح له بحثه في أطروحة الدكتوراه حول شعرية الفضاء الروائي أن يعود إلى ينابيع هذه (النظرية) في أسسها الغربية، وأن يتمرس بمفاهيمها المتعددة، ومن ثم بدت له فداحة خسارة البحث العربي في هذه الشعرية، فاقترح إعادة ترجمة كتاب (غاستون باشلار - G.Bachelard). وإشارته إلى عدم دقة ترجمة غالب هلسا وبالإجمال فهو يرى بأن لا وجود لفضاء خارج النص الأدبي. إن الفضاء الروائي ليس مجرد تقنية أو قيمة أو إطار للفعل الروائي، بل هو المادة الجوهرية للكتابة الروائية، ولكل كتابة أدبية»⁽³⁶⁾.

إن الذي يبدو لنا - في هذه المقالة- أن المكان مقابلا عربيا لمصطلح (L'espace) في اللغة الأجنبية، واقع أدبي، عفا عليه الزمن، لأنه لا يكافئ إلا مصطلح (Le Lieu) كما أشار- إلى ذلك الباحثون المراجعون في جملتهم ، لأنه لا يغطي معرفيا إلا مقولة: (الفضاء المرجعي) أو (الجغرافي) من بين مقولات الفضاء المتعددة.

أما الاختلاف على مصطلحي: (الفضاء) و (الحيز) في مكافأة مصطلح (L'espace) فإن عامل التداول كفيل بتسويق احدهما دون الآخر.

وأما مصطلح (La proxémie) فهو ينتمي إلى المشروع السيميائي لتحليل الذات والموضوعات بوساطة (الحيز)⁽³⁷⁾ أو (الفضاء) . ولأنه يهتم بربط الفضاء بنموذج ثقافي معين عند: T.HALL - (الأنثروبولوجيا) فيبدو أنه ذو صلة بالبنية لثقافة معينة⁽³⁸⁾. ثم إن هذا المصطلح الذي ترجمه وغليسي يوسف بـ «الجوارية» وبسام بركة، في قاموسه اللساني، بـ«المجاورة» فيميل إلى البحوث الإنسانية أي الثقافية والفكرية، فيما يكون الفضاء حلولا في النص الأدبي في مستويات عدة.

إحالات:

- 1-روبرت سي هولب: نظرية الاستقبال، تر: رعد عبد الجليل جواد، ط2، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية سوريا، 2007، ص : 42.
- 2-جوزيف كيسنر- شعرية الفضاء الروائي، تر: لحسن احمامة، د.ط، أفريقيا الشرق، المغرب، بيروت- لبنان 2003، ص 26/25.
- 3-جيريمي هاوثرن، مدخل إلى دارسة الرواية: تر، نايف الياسين، ط1 مؤسسة النوري للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - سوريا 1988، ص:36.
- 4-نفسه، ص: 37.

- 5-جماعي- معنى المدينة- تر: د. عادل العوا، د.ط، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دمشق- سوريا 1978، ص:39.
- 6-نفسه، ص:40.
- 7-ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، تر: فريد انطونيوس، ط2، منشورات عويدات بيروت -باريس، 1982، ص : 103.
- 8-جيريمي هاوثرن، السابق، ص : 34.
- 9-Henri Mitterand : le discours du Roman P.U.F 1980, p 193.
- 10-جيرالد برنس، المصطلح السردى تر: عابد خزندار، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002، ص: 89.
- 11-جماعي، الفضاء الروائي، ترجمة: عبد الرحيم حزل، د.ط، أفريقيا الشرق، المغرب، لبنان 2002.
- 12-Gerard Genette : figures II ed du seuil, 1969.p.47.
- 13-يوسف اسكندر، الدكتور، اتجاهات الشعرية الحديثة، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، 2008 ص:175.
- 14-Ibid, p48 ,15-Ibid
- 16-الجاحظ، الحيوان، ج2، ط1، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان 1998 ص:67.
- 17-الجرجاني القاضي بن عبد العزيز، الوساطة، ج: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، و، ط.د، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت- لبنان.
- 18-محمد زغلول سلام، الدكتور النقد الأدبي الحديث، د،ط، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 1981.
- 19-صلاح صالح، قضايا المكان الروائي، ط1، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة 1997، ص:19.
- 20-نفسه: ن،ص:
- 21-جماعي، "مشكلة المكان الفني" يوري لوتمان، تر: سيزا قاسم دراز، ط2، عيون المقالات الدار البيضاء- المغرب 1988، ص: 59 وما بعدها.
- 22-نفسه، ص:59.
- 23-ياسين النصير، جماليات المكان في شعر السياب، د،ط، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق- سوريا 1995، ص:8.
- 24-يمنى العيد، الدكتور، فن الرواية العربية، ط1، دار الآداب، بيروت، لبنان 1998، ص: 111.
- 25-حسن بجاوي، بنية الشكل الروائي، ط2، المركز العربي العربي، الدار البيضاء المغرب- لبنان 2009، ص:31.
- 26-عبد الصمد زايد، الدكتور، المكان في الرواية العربية، ط1، نشر كلية الآداب - منوبة- دار محمد علي، تونس، 2003، ص:18.
- 27-عبد المالك مرتاض، الدكتور، نظرية النص الأدبي، د،ط، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر 2007، ص:297.
- 28-نفسه، ص: 305.0
- 29-جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة (الرسائل)، د.ط، دار الجبل، بيروت- لبنان 2002، ص، 249.
- 30-بسام قطوس، الدكتور، استراتيجيات القراءة، ط2، عالم الكتب، القاهرة 2005، ص:37.
- 31-نفسه، ص:38
- 32-حميد لحداني الدكتور، بنية النص الروائي، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، بيروت- لبنان 2000، ص:62.
- 33-نفسه، ص: 64

- 34-رشيد بن مالك، الدكتور، مقدمة في السيميائية السردية د.ط، دار القصة للنشر الجزائر 2000، ص: 99.
- 35-نفسه، ص:102.
- 36-شعرية الفضاء السردى، حسن نجمي، الدكتور، ط1، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء - المغرب- بيروت- لبنان 2000، ص:59.
- 37-عبد المالك مرتاض، السابق، ص: 297.
- 38-يوسف وجليسى، الدكتور، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدى الجديد، ط1، منشورات الدار العربية للعلوم - بيروت، الاختلاف- الجزائر 2008، ص: 2